

قراءة نقدية في كتاب:

مرجعية الخطاب السياسي الإسلامي في فلسطين^١ عوني فارس*

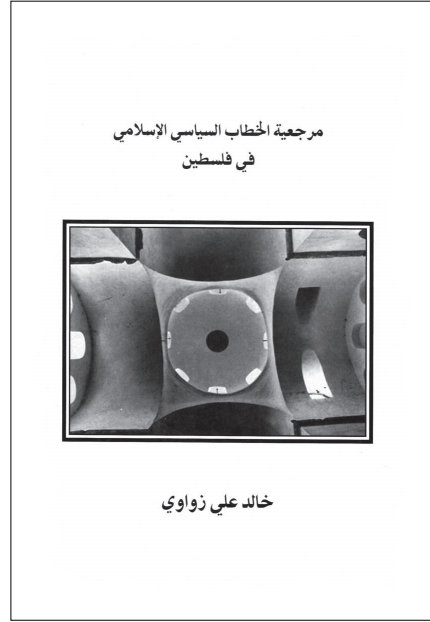
الكاتب، أن الخطاب السياسي الإسلامي خطابٌ سياسيٌ مرجعية، يتوافق التأثير الديني فيه مع حاجة السياسي لترسيخ مشروعيته، وأنه يعمل على صوغ المرجعية الدينية وتفسيرها بصورة استرجاعية، لتتوافق وتدعيم الخيارات السياسية لهذا الخطاب، وذلك وفق آليات انتقاء وحذف تتناسب والظرف الزمني والمكاني. تبدأ الدراسة بإطار نظري يتناول مفهوم الخطاب وتطوره في الفكر المعاصر؛ ويتطرق إلى مختلف التعريفات للعديد من المصطلحات المتعلقة بموضوع الدراسة، مثل الخطاب السياسي والمفهوم والمرجعية والتحليل؛ ويبين المنهجيات الثلاث التي اعتمدها في تحليل الخطاب السياسي الإسلامي، وهي: منهجية محمد عابد الجابري القائمة على القراءة التشخيصية للتناقضات التي يحملها الخطاب؛ ومنهجية ميشيل فوكو لكشف أوضاع إنتاج الخطاب وآلياته، ومعرفة علاقات السلطة التي يحتويها؛ ومنهجية فتغنشتاين في تحليله للغة ونظريته حول المعنى.

تأسيس الخطاب السياسي الإسلامي المعاصر

يرجع الكاتب الفضل في تأسيس الخطاب السياسي الإسلامي المعاصر إلى الإمام حسن البنا، الذي تمكن من تشكيل خطاب إسلامي جديد، يقطع مع الخطاب الإسلامي الإصلاحية السابق عليه، ويتجاوز بناه المؤسساتية والمعرفية والفكرية، فالبنا -برأي الكاتب- تجاوز الرؤية الاعتقادية الفلسفية لدى ممثلي الفكر الإصلاحي، وابتعد عن التقييد النخبوي الذي ورط الفكر الإصلاحي نفسه فيه، وقدم جواباً مؤسسياً عن ضياع الخلافة بإنشاء جماعة الإخوان المسلمين. ويشير الكاتب أيضاً إلى أن البنا برؤيته المتجاوزة للفكر الإصلاحي، «أوجد «براديجما [Paradigm]»^٢ جديداً أنهى البراديجما القديمة ممثلاً في الفكر الإصلاحي، وضمن عن طريق سلطة خطابه السياسي الجديد الهيمنة الكاملة على مجمل العمل السياسي الإسلامي حتى اللحظة»^٣.

التيار الإسلامي بفلسطين في إبان الانتداب البريطاني

يرجع الكاتب تأخر تكوّن تيار إسلامي سياسي في فلسطين في إبان الانتداب البريطاني، إلى عدة أسباب، منها عدم إثارة التساؤل، فلسطينياً، حول العلاقة بين



تكتسب دراسة خالد زواوي أهميتها من كونها الأولى من الدراسات في هذا الحقل البكر، إذ لم يسبق أن تناول الموضوع أحد من قبل بهذا التفصيل وهذه الدراية، فقد كان معدّها أحد العاملين في المجال السياسي الإسلامي في فلسطين، وهو ابن هذا الخطاب وشاهد من داخله. تهدف الدراسة إلى تحليل مفردات الخطاب السياسي الإسلامي لحركتي حماس والجهاد الإسلامي؛ وتشكيل تصوّر حول مرجعيته؛ ومعرفة مقدار الديني والموضوعي-الواقعي في بناؤه؛ وتسعى الدراسة أيضاً لتبيان العنصر الضابط له؛ وهي تفترض، كما يؤكد

١ خالد زواوي. مرجعية الخطاب السياسي الإسلامي في فلسطين. (رام الله: مواطن المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، ٢٠١٢).

* باحث وكاتب من مدينة سلواد.

٢ يقصد بالبراديجم منظومة معرفية تفسيرية تتضمن جملة من النظريات والحقائق ومناهج البحث العلمية السائدة في حقل ما في عصر ما [ملاحظة من المحرر: ح. ٢].

٣ ص ٤٧ من الكتاب.

ما هو وطني وما هو ديني، أو دور الدين في المعركة الوطنية، بحكم طبيعة الصراع القائم في فلسطين، والدور الفاعل للعديد من علماء الدين المسلمين والشخصيات الإسلامية في الفعل الوطني، إذ استوعب هؤلاء القضايا الوطنية في خطابهم وحراكهم السياسي، ثم إن الخطاب الفلسطيني العربي الودودي بطبيعته خطاب إسلامي، إصلاحي، لم يفرق بين الديني والوطني، والمشروع الأساسي للإسلاميين وغيرهم في فلسطين، كان على رأس أولوياته إنقاذ فلسطين من المشروع الصهيوني، من دون الالتفات إلى مسألة التقييم على أسس معرفية وأيديولوجية.

ويرى الكاتب أن إنتاج خطاب سياسي إسلامي في فلسطين قد انتظر حتى منتصف الأربعينيات من القرن الماضي، حين أعلن رسمياً عن تشكيل جماعة الإخوان المسلمين فرع فلسطين، وبقيت رؤية الإخوان المهيمنة منذ ذلك التاريخ، وقد كان خطاب الجماعة السياسي ملتزماً برغبة في العمل المشترك مع التيارات الوطنية تحت راية توفيقية، وكان واضحاً أن الجماعة تمتلك نضجاً سياسياً وفكرياً، جعلها تعي ضرورة أن يكون الإطار شاملاً لكل الأطياف السياسية العاملة في فلسطين، وكان ظاهراً غلبة السياسي على الأيديولوجي في عمل الجماعة.

ولعل ما يستوقف القارئ هنا، ما أشار إليه الكاتب حول دور الحاج أمين الحسيني في إعاقة تطور الخطاب الإسلامي في فلسطين، إذ يرجع تأخر ظهور حركة الإخوان المسلمين على مسرح الفعل السياسي في فلسطين إلى الحاج أمين الحسيني، الذي أمسك بزمام القيادتين السياسية والدينية في فلسطين، وقدم خطاباً أقرب ما يكون علمانياً. ولا يقدم الكاتب أي دليل يذكر على هذه الفرضية (وهي بالأساس مقتبسة عن كتاب آخرين من أمثال د. ماهر الشريف)، فاعتبار زعامة الحاج أمين الحسيني عائقاً أمام بروز الإخوان في ذلك الوقت تحتاج إلى مراجعة، نظراً إلى العلاقة الطيبة التي ربطت الحاج أمين وجماعة الإخوان المسلمين، ومن المعروف أن الجماعة الأم في مصر كانت تتسق مع الحاج أمين، وتتفاعل مع القضية الفلسطينية عن طريقه، هذا بالإضافة إلى أننا نجد أيضاً أن الكثير من البارزين في جماعة الإخوان في فلسطين كانوا من أنصار الحاج أمين، مثل الشيخ محمد أسعد الإمام الحسيني، والمجاهد عبد الحليم الجيلاني المعروف بالشلف.

أما وصف الخطاب السياسي للحاج أمين بالعلماني أو المبتعد عن المرجعية الإسلامية، فبحاجة إلى نقاش، فالحاج أمين إسلامي، من حيث الدوافع والمنطلقات

الفكرية والخطاب السياسي والاجتماعي، ومن حيث السلوك الشخصي، وأيضاً من حيث الوسائل النضالية. أما مظاهر السلوك السياسي التي تتطابق مع الطرح القومي والعلماني فهي ذات أساس إسلامي، كاعتبار المسيحيين جزءاً من الجسم الوطني؛ وطرح القضية في إطار عربي وأمة عربية وروح عربية؛ والملاحظات الكثيرة التي يبديها العديد من الباحثين، سميح حمودة على سبيل المثال، على موقف الحاج أمين المهادن لبريطانيا والطامع في نيل رضاها تحديداً قبل ثورة ١٩٣٦، فهذا لا يدخله مربع العلمنة بقدر ما يبقيه في إطار المناورات السياسية.

طبيعة الخطاب السياسي في فلسطين حتى العام ١٩٨٣

يرى الكاتب أن من أهم سمات الخطاب الإسلامي في فلسطين في الأعوام ما بين ١٩٤٩-١٩٧٥، هي التركيز على المجالين التربوي والأخلاقي، والدعوة إلى الإعداد لمرحلة الفعلين السياسي والمقاوم، ويعتد الكاتب الأسباب التي أدت إلى تغييب الإخوان المسلمين عن المشهد السياسي الفلسطيني في تلك المرحلة، فيذكر منها أن حياة التجربة التاريخية للحركة الإسلامية كانت قصيرة، فهي حركة حديثة النشأة نسبياً؛ ويقول أنه ما أن باشرت الحركة العمل التنظيمي والسياسي، حتى بدأت تتعرض للملاحقة والتصفية؛ ويذكر من هذه الأسباب أيضاً ارتهان قرار الإخوان في فلسطين لتنظيمي الإخوان في مصر والأردن، الأمر الذي أعاق الخطاب الإسلامي من إنتاج خطاب وطني «يقارب المسألة الفلسطينية فلسطينياً».

ويعتبر الكاتب أن سنة ١٩٨٣، كانت نقطة تحول رئيسية في مسيرة الخطاب السياسي الإسلامي في فلسطين؛ إذ عقد مؤتمر داخلي لحركة الإخوان (تنظيم بلاد الشام)، حضره عدد من قياداتها من بينهم حسن القيق وعدنان مسودة، رحمهما الله، وعبد الفتاح دخان وخالد مشعل، وجرى في المؤتمر إقرار دعم الإخوان في فلسطين مالياً للاستعداد بالسلح لمرحلة مقبلة من الجهاد، وقد أنشئ في هذا التاريخ ما أطلق عليه الإخوان جهاز فلسطين العام.

٥ ص ٧٤.

٦ هناك خلاف حول التاريخ فبعض الكتاب. كأبي العمرين. يعتبر أنه حدث سنة ١٩٨٠.

٤ يمكن الرجوع إلى كتابات د. محسن صالح ود. عواطف عبد الرحمن ود. عبد الفتاح العويس حول علاقة الإخوان المسلمين بالحاج أمين.

نقاش حول عوامل تأسيس حركة حماس

يشير الكاتب إلى أن تأسيس حركة حماس جاء بناءً على التحدي، الذي شكله انبثاق حركة الجهاد الإسلامي، وليس بناءً على تطور في الخطاب الفكري والسياسي لجماعة الإخوان المسلمين في فلسطين تجاه القضية الفلسطينية. وعلى الرغم من أهمية صعود نجم حركة الجهاد الإسلامي في التسريع بانبثاق حركة حماس من رحم جماعة الإخوان المسلمين، إلا أن الكاتب أغفل عوامل أخرى كانت أكثر عمقاً وتأثيراً، مثل نضوج جيل من الإخوان الشباب الذين أكملوا برنامجاً تربوياً وفكرياً دام سنوات، واحتكوا بمختلف التيارات الوطنية في أكثر من موقع، وخصوصاً الجامعات، وكانت لهم تجربتهم الخاصة في ميادين العمل الخيري والاجتماعي والدعوي والتعليمي، وشاركوا في الانتفاضات الجماهيرية التي كانت تحدث بين الحين والآخر في الضفة الغربية وقطاع غزة، حتى أصبحوا على أتم الاستعداد لخوض غمار المعركة مع الاحتلال، ولعل الشهيد فتحي الشقاقي، رحمه الله، كان واحداً من هؤلاء. أتى هذا الجيل دوراً مركزياً في حث قيادته على البدء في المعركة، ومن الجدير بالانتباه هنا إلى أن هذا الجيل لم يكن بعيداً عن النفس الجهادي في أثناء التربية والإعداد، بل كان يلقن على أنه سيقدم مستقبلاً مثلاً متميزاً في الجهاد والمقاومة، وكانت تجارب الإخوان الجهادية في فلسطين وغيرها حاضرة في ذهنه، وكذا التجارب الإسلامية الأخرى التي شارك الإخوان الفلسطينيون في بعضها، كالتجربة الأفغانية في إبان الاحتلال السوفيتي لأفغانستان، كما منح انتصار الثورة الإسلامية في إيران نفساً إضافياً للشباب الأخواني. بالإضافة لما سبق، لا يمكن بحال التقليل من شأن الاستعدادات العملية التي يباشر بها الإخوان منذ سنة ١٩٨٠ للبدء في المقاومة، ففي هذا العام أرسل الإخوان كوادراً للتدريب على السلاح إلى الخارج، وأسسوا الجهازين الأمني والعسكري في قطاع غزة، وقد اكتشف الاحتلال في العام نفسه تنظيم «أسرة الجهاد» في أراضي عام ١٩٤٨، وفي المرحلة نفسها عُقد اجتماع الإخوان المركزي سالف الذكر، الذي تقرر فيه البدء بالاستعداد العملي للمقاومة، ثم عُقد اجتماع آخر سنة ١٩٨٥ اتخذت فيه قيادة الإخوان قراراً باستغلال أية أحداث للاشتراك في المواجهة ضد الاحتلال.^٧

إن الأمثلة سالفة الذكر تشير بوضوح إلى أنه من الإجحاف تفسير تأسيس حركة حماس وقدرتها على

تقديم نموذج مقاوم، نافس التجارب الأخرى، ذات الإرث النضالي الطويل، بلحظة «حسد» أو «غيرة» من حركة إسلامية مقاومة أخرى. أما عن عدم تبني الإخوان لحركة حماس رسمياً منذ اللحظة الأولى، فأعتقد أنه كان بناءً على تقديرات أمنية، وليس لها علاقة باتضاح صورة الأوضاع السياسية والميدانية على الأرض، فقرار فتح المواجهة مع الاحتلال كان قد أُخذ إخوانياً، وهذا على الأقل ما تشير إليه مذكرات العديد من قادة حركة حماس.

نصوص تأسيسية... وخيارات سياسية

يجري الكاتب مقارنة بين الميثاق والمذكرة التعريفية على أنهما مرجعان أساسيان للحركة، ونصان تأسيسيان، ويخلص إلى العديد من النتائج، منها: أن لغة الميثاق تغلب الشرعي والعقدي على السياسي؛ أما لغة المذكرة فجاءت بأفكار الميثاق، ولكن بلغة سياسية بحتة، وهي تحوي أيضاً، بحسب الكاتب، على قيمة تطويرية، وهي مقدمة لإدخال الخطاب السياسي في المرجعيات الضابطة للنص السياسي لحركة حماس. وي طرح الكاتب مسألتَي الهدنة والانتخابات التشريعية كخيارين نأت فيهما حركة حماس عن «الشرعي» لمصلحة «السياسي»، فالهدنة، برأى الكاتب، تعبير عن مأزق أيديولوجي، إذ بطرحها جرى تجاوز الشرعي الأيديولوجي باتجاه السياسي الواقعي، فالحاجة إلى مرونة سياسية تتطلب تقديم مبادرة، لكن على أساس شرعي يحفظ للحركة ماء وجهها أمام جمهورها ومؤيديها على مستوى العالم الإسلامي، فتكون هنا قد تجاوزت مأزق «السياسي» كمواجهة «للشرعي»، وتستعيز عنها بحل «الشرعي» كمشروع «للسياسي»، وهنا، كما سنرى، يكفي في «الشرعي» أن يعطي مجرد شرعية، من دون الذهاب بعيداً في التفصيلات الداخلية، فدوره هنا ليس «تأصيلياً» وإنما «تكميلي».^٨

شكلت الهدنة، بحسب زواوي، البداية «للسياسي أولاً» كبديل عن «الشرعي أولاً»، فهي إقرار بالواقع، وعمل سياسي بامتياز، ويدل على ذلك بتجاهل الحركة لطرح تأصيل شرعي تحدد عن طريقه ماهية الاجتهادات التي استندت إليها، وخصوصاً أن الموضوع قد عولج فقهيًا بتوسع وهناك آراء فقهية عديدة، لذا فإن «الشرعي» هنا غير مقصود إلا من باب التوظيف، والحركة كانت بحاجة إلى عنوان شرعي ليس إلا.

لعل التحليل أعلاه وما تبعه من أمثلة، يشير إلى العديد من الثغرات المنهجية، التي أصابت فرضية الدراسة الأساسية، إذ يمكن وضع الكثير من الملاحظات

^٧ حول تفصيلات تلك المرحلة يمكن الرجوع إلى كتاب محسن صالح: القضية الفلسطينية خلفيات تاريخية وتطوراتها المعاصرة. بيروت. مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات. ٢٠١٢.

على المنهجية التي اتبعها الكاتب في التفريق بين السياسي والديني في خطاب الحركات الإسلامية، لأن عملية الفصل بين الاثنين تبدو أكثر تعقيداً مما يعتقد كثيرون، وتخضع لمنطوية تفقيدها علميتها، فالدين الإسلامي يعطي هامشاً كبيراً للغة السياسية والفعل السياسي، كما أن لفقه الواقع مكانة كبيرة في السياسة الشرعية، لذا يقترب تحليل زواوي لهذه المسألة من السطحية، خصوصاً عندما يعتبر أن أي خيارات سياسية بامتياز، هي بالضرورة، لا تمتلك الشرعية الدينية، كما أن عدم تطرق السياسي إلى المنطلقات الشرعية في خياراته، لا يعني بتاتا أنه لا يستند إلى الأحكام الشرعية؛ أمّا التقليل من شأن استخدام قاعدة فقهية مثل «المصالح المرسله»، والقول إن استخدامها في الشأن السياسي تحييد للشرع، فهذا يعارض اجتهاداً فقهياً، أفتى بصوابه عدد من الفقهاء المعبرين.

الخطاب السياسي الإسلامي لدى حركة الجهاد الإسلامي

يقدم الكاتب مراجعة شاملة للخطاب السياسي الإسلامي، الذي تبنته حركة الجهاد الإسلامي منذ نشأتها حتى الآن، ويوضح أصوله والعوامل المتعددة التي ساهمت في صوغه، ويرصد أيضاً تطوره، ويسلط الضوء على شخصية الشهيد فتحي الشقاقي، رحمه الله، ومساهماته الرئيسية في تشكيله.

مرحلة التأسيس

يتوقف الكاتب طويلاً عند السيرة الفكرية لفتحي الشقاقي، باعتباره ناحت الخطاب السياسي لحركة الجهاد الإسلامي، ويسرد، بتوسع وبدرجة عالية من الانبهار، جملة المفكرين الذين أثروا في قناعاته، من أمثال توفيق الطيب وسيد قطب وأبو القاسم حاج حمد ومالك بن نبي وعلي شريعتي، وسلسلة الدراسات، التي راجعها واعتمدها عليها في خلاصاته. ويرى زواوي أن مرحلة التأسيس الفكري والمنهجي، التي استمرت من سنة ١٩٧٥ إلى سنة ١٩٩١، كانت تتمحور حول جملة من الأفكار الرئيسية، كمركية القضية الفلسطينية في الخطاب السياسي الإسلامي في فلسطين، إذ يعتبرها بالإضافة النوعية الأبرز التي قدمتها حركة الجهاد الإسلامي، وبحسب الكاتب فقد جاءت بتأثير كتابات

السوري توفيق الطيب. ويشير الكاتب إلى أن ما ميز حركة الجهاد الإسلامي عن جماعة الإخوان في تلك المرحلة، موقفها من التغيير في الوطن العربي، فقد تأثر خطابها السياسي في حينه بأفكار الجماعة الإسلامية في مصر، فتبنت تكفير النظم السياسية العربية، وطالبت بالخروج عليها بالسيف، ورفضت الديمقراطية. ويتحدث الكاتب عن مرحلة جديدة من التحولات الفكرية مرت بها حركة الجهاد الإسلامي، ما بين ١٩٩١-١٩٩٥ م، نتيجة لعاملين رئيسيين هما: نزوح فكر الشقاقي، وخصوصاً بعد إبعاده عن فلسطين سنة ١٩٨٨ م؛ وحرب الخليج الثانية سنة ١٩٩١ م، فقد دعا الشقاقي في هذه المرحلة إلى الالتقاء بين القوى الفلسطينية والعربية العلمانية منها والإسلامية، ونادى بضرورة السلم الأهلي الداخلي في فلسطين، ومقاومة السلطة الفلسطينية سياسياً، والتوقف عن الدعوة إلى استخدام العنف لتغيير أحد الأنظمة القريبة من فلسطين، وقبول التداول السلمي للسلطة والتعددية والبناء على ما هو إيجابي في المجتمعات العربية. ويتناول الكاتب بشيء من التفصيل، مرحلة الأمانة العامة الثانية ١٩٩٥-٢٠٠٧، ويرصد تطور الخطاب السياسي لحركة الجهاد بقيادة رمضان عبد الله شلح، ويعرض جملة المواقف والأفكار، التي تبنتها حركة الجهاد الإسلامي في مرحلة الأمانة العامة الثانية، والمنطلقات التي اعتمدها في صوغها. ولعل ما يستنتجه القارئ مما شرحه زواوي حول المرحلة الأخيرة من التطور في الخطاب السياسي لدى حركة الجهاد الإسلامي هو التقاطع الكبير بين الخطابين السياسيين لحركتي حماس والجهاد، وإن اختلفتا في بعض المواقف، كما في الموقف من الانتخابات التشريعية عام ٢٠٠٦، هذا بالإضافة إلى التطورات الإيجابية، التي بدأ الحديث عنها حول العلاقة بين الحركتين بعد الحرب الأخيرة على قطاع غزة، والتطورات الإقليمية في ظل الربيع العربي، والتي يمكن أن تؤدي إلى اندماج الحركتين، وهذا ما يتمناه كثيرون.